## أولاً. نبذة تاريخية عن دولة المماليك البحرية[1]

يرجع تاريخ المماليك بوصفهم أفراداً في العالم الإسلامي إلى حقبة تسبق قيام دولتهم بسنين طويلة، إذ استخدموا من قبل خلفاء الدولة العباسية منذ أوائل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وظلت الأسواق التجارية حافلة بهم في الفترات اللاحقة[2]. اقترن لقب المماليك في التاريخ الإسلامي بالرقيق الأبيض دون الأسود، وهم الذين يدخلون في الرق، أما نتيجة الأسر في الحروب أو الشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية، وكانت مناطق آسيا الوسطى وشواطئ بحر البلطيق وجنوب شرقي أوربا الحالية المصدر الرئيسي للمماليك[3]. وكانوا من أجناس شتى يباعون في أسواق النخاسة ويقبل السلاطين والأ ثرياء على شرائهم لمزاياهم العسكرية والخدمية[4].

لقد دأب طائفة من سلاطين الدولة الأيوبية في شراء المماليك واستخدامهم لأغراض عسكرية، إذ حلوا تدريجياً محل الكرد الذين كانوا معتمد الدولة إلى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٨هـ - ٦٤٧هـ /١٢٤٠م- ١٢٤٩م) الذي استكثر من شراء المماليك والاعتماد عليهم وتأميرهم، إلى أن ازدادت سطوتهم ولم يبق لهم منافس داخل الدولة من حيث النفوذ والعدد والعدة[5].

وبعد وفاة الملك الصالح زاد نفوذ المماليك وأوصلتهم قوتهم إلى حد التدخل في أمور الحكم والسلطة، وتآمروا على الملك تورانشاه وقتلوه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م بعد شهرين من الحكم تقريباً نتيجة لسوء معاملته لهم[6].

---

(١) المماليك البحرية:- تسمية أطلقت على مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب لانه أسكنهم في جزيرة الروضة وسط النيل، وسموا بالبحرية لإحاطة النيل بهم، ويرى طائفة من المؤرخين انهم سموا بالبحرية لأنهم يجلبون عن طريق البحر بواسطة التجار، ينظر، سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام. (القاهرة:- ١٩٦٠)، ص٥ " احمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، (إسكندرية، ١٩٨٢) ص ص٩٧-٩٩.

(٢) ينظر:- احمد مختار العبادي، م.ن، ص ص ١١-١٦.

(٣) فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ( جروس برس، ١٩٩٥م) ص٥٥.

(٤) ينظر:- علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ص٢٤-٣٠.

(٥) ينظر، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ص٣١٩-٣٣٦.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ص ١٣٤-١٣٥.

يعدّ الملك المعظم تورانشاه آخر ملوك بني أيوب الذين حكموا حكماً فعلياً في مصر، وبعد مقتله سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) اتفق المماليك على تنصيب شجرة الدر زوجة الملك الصالح سلطانه على مصر وخطب لها على المنابر وضريب السكة باسمها واستمرت على ذلك مدة ثلاثة أشهر ثم خلعت نفسها واستقر زوجها الملك المعز ايبك التركماني سلطاناً للمماليك [١]، لقد عدّ جمع من المؤرخين شجرة الدر آخر ملوك الدولة الأيوبية بوصفها زوج الملك الصالح[٢]، فبعد تولي الملك المعز السلطنة بالديار المصرية ثبتت أركان دولة المماليك البحرية نسبياً وانتهى عهد الدولة الأيوبية في مصر بعد أن أصابها الوهن جراء خلافات أمراء البيت الأيوبي وملوكهم فيما بينهم، الأمر الذي شتت الشمل ومزق الوحدة فتشكلت سلطات ودويلات أيوبية في بلاد الشام على شاكلة دويلات المدن التي لا تقوى على الدفاع عن نفسها أمام الصليبيين كما لا تقوى على توحيد صفوف تلك الأقطاب المتعددة، وفي مقدور الباحث القول بأن انعدام الرؤية الواضحة لولاية العهد في سياسة الملك الصالح فضلاً عن ثقته الزائدة بالمماليك وتهميش مكانة الكرد في الجيش الأيوبي ما مهد الطريق لان يكون للمماليك شأن سياسي، فضلاً عن ان البروز السياسي للمماليك رافقته وفاة الملك الصالح وتولي ابنه الملك المعظم زمام الحكم الذي كان قبل ذلك حاكماً على حصن (كيفا) في بلاد الجزيرة، وتولى الحكم في مصر دون سابق تجربة فيها، فهو غريب عن مصر وبيئتها السياسية ولم يكن معايشاً للتغيرات العسكرية والسياسية التي أوجدها والده في السنوات الأخيرة من حكمه، لذا نجد انه لم يقدر قوة المماليك ونفوذهم حق التقدير، فيفهم من ذلك انه وقع ضحية عدم فهمه لروح عصره ومتطلبات العمل السياسي.

لم يكن المماليك مجتمعين حول مرجع يطيعونه وينفذون أوامره مما جعلهم يعينون الملك الأشرف مظفر الدين موسى الأيوبي الذي كان صبياً ابن عشر سنين سلطاناً لمصر وجعلوا المعز أتابكه فكانت السكة والخطبة مشتركة بينهما. وكل هذه التغيرات شملت الديار المصرية فقط دون الشام التي ظلت يحكمها أمراء البيت الأيوبي[٣]. ولم يبق الملك

---

[١] البداية والنهاية، ج١٣، ص١٤٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ص ٣٧٣-٣٧٥.
[٢] الاسحاقي، لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (القاهرة:-١٣٠٣هـ)، ص١٢٦.
[٣] ابن كثير، مصدر سابق، ج١٣، ص١٣٥.

الأشرف الأيوبي كثيراً في السلطة، إذ خلع في سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م، ويرى أحد المؤرخين انه آخر من ولي مصر من ملوك الأسرة الأيوبية وخطب له فيها، ويعد خلعه نهاية الدولة الأيوبية الكردية هناك [١]. ولكن إن صح هذا من الناحية الشكلية فانه لا يصح من الناحية الفعلية، إذ تعدّ سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م نهاية الدولة الأيوبية في مصر.

حكم الملك المعز الديار المصرية لمدة سبع سنوات وتوفي سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م إذ قتلته زوجته (شجرة الدر) ونصبوا بعده ولده المنصور سلطاناً وصار الأمير سيف الدين قطز أتابكة[٢]. وبقى الملك المنصور سلطاناً إلى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م في حين كانت منطقة الشام يحكمها أمراء البيت الأيوبي، فكانت دمشق وحلب بيد الملك الناصر، والكرك والشوبك بيد الملك المغيث، وحماه يحكمها الملك المنصور ومنطقة حمص بيد الملك الأشرف موسى حاول أولئك لأمراء حفظ مناطقهم من مماليك مصر بل شكلوا خطراً عليهم وعملوا دون جدوى لاستعادة مصر إلى السلطة الأيوبية[٣].

بعد أن خلع سيف الدين قطز الملك المنصور عن السلطة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، انفرد بالسلطة واصبح أول سلطان مملوكي يمتد سلطته إلى أجزاء كبيرة في الشام بعد أن اتفق مع بعض ملوك الأيوبيين في الشام على محاربة المغول الذين توغلوا في المنطقة وحاربهم وانتصر عليهم في وقعة عين الجالوت الشهيرة مما أدى إلى تقوية نفوذ الدولة المملوكية في الشام واستناب الملك المظفر قطز النواب في بعض جهاتها[٤].

---

[١] العصامي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، (القاهرة، ١٩٦٠)، ج٤، ص١٥.

[٢] الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، وحوادث ووفيات (٦٥١-٦٦٠هـ)، (بيروت، ١٩٩٩)، ص٢٨، علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ص ٣٣-٣٤.

[٣] ينظر الذهبي، م.ن، ص ص ٣٣،٣٠،١٧ " ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج٥، ص ص٧٨٤-٧٩٠ " أبن طولون، أعلام الورى بمن ولى نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق:- محمد أحمد دهمان، (دمشق:- ١٩٦٤)، ص ٣.

[٤] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ص١٦٢-١٦٦، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ص٦٠-٨٣ " السيد الباز العريني، المغول، (بيروت:- ١٩٦٧)، ص ص ٢٥٩-٢٦١"
Lane-Poole, History of Egypt in the Middle Ages (London: 1925), P.262.

وبعد المعركة اتفق عدد من كبار أمراء المماليك على قتل الملك المظفر قطز فاغتالوه في سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ونصبوا الأمير بيبرس البند قدارى سلطاناً، وفي تلك الحقبة حاول المماليك إحياء الخلافة العباسية فبايعوا أبا القاسم احمد عم الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م ولقبوه المستنصر بالله[١] ازدادت سلطة المماليك في بلاد الشام أبان عهد

الملك الظاهر وذلك بعد مقتل الملك المغيث الأيوبي حاكم الكرك سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م، ووفاة الملك الأشرف صاحب حمص سنة ٦٦٢هـ/١٢٨٤م الذي صار ملكه إلى الدولة الظاهرية[٢]. وكانت للملك الظاهر بيبرس اليد الطولي في زعزعة مواقع الصليبيين في الشام ومن ثم إلحاق الهزائم بهم وتحرير الكثير من المدن والمواقع[٣] لذا يعد الملك الظاهر من أقوى سلاطين المماليك، إذ تمكن من تثبيت دعائم الحكم المملوكي في مصر والشام فغدت أقوى دولة إسلامية، وشهدت ازدهاراً سياسياً وحضارياً ملحوظاً.

توفي الملك الظاهر سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م وتولى بعده أبنه الملك السعيد الذي حكم ما يقارب سنتين وخلعه أمراء المماليك وعينوا مكانه أخاه بدر الدين سلامش ونعتوه بالملك العادل وعمره سبع سنين وكان أتابكه الأمير سيف الدين قلاون الألفي الذي تصرف في المملكة وعامله الأمراء معاملة السلطان وما لبثوا أن خلعوا الملك العادل سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م

---

[١] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص ص ٢٨، ١٢٣ " الذهبي، مصدر سابق (٦٥١-٦٦٠)، ص ص ٦٤-٦٥، ٧٥ " السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق:- محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة:- د.ت)، ص ص٥٤٩-٥٥٠"

William Muir, The Caliphate, Itsrise Decline and Fall (New York: 1975), PP. 593-594.

[٢] الكتبي، عيون التواريخ، ج٢١، ص ص١٣٥-١٤٥، وابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ص٨٣٠-٨٣١ " وينظر سعيد عبدالفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، (القاهرة:- د.ت)، ص ص٢٥-٤٢" موسى مصطفى إبراهيم، الحياة السياسية في بلاد الشام ( ٦٣٤-٦٥٨/١٢٣٦-١٢٦٠) دراسة في العلاقات الداخلية والخارجية، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، مطبوعة بالآلة الكاتبة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة صلاح الدين (أربيل:- ١٩٩٧م)، ص ص ١٧٥-١٨٠.

[٣] ينظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣، ص ص١٨٥،١٨٣، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٤، ٢٠٥، فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامي، ص ص١٣٦-١٧٠.

وعينوا عوصه سيف الدين قلاون ولقب بالملك المنصور[1] وهو الذي انفرد بالحكم والتصرف في السلطنة[2].

عمد الملك المنصور إلى تهيئة نفسه لمحاربة فلول الصليبيين في بلاد الشام بعد أن استتبت له الأوضاع الداخلية[3]. فعقد معهم مهادنات مؤقتة بغية إضعافهم، وإستولى بعد ذلك على معظم ما بقى في أيديهم[4] وشهد عصره أيضاً انتصار المسلمين في موقعه حمص سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م على المغول [5] التي نتج عنها إفشال خطط المغول الهادفة إلى الاستيلاء على بلاد الشام وتحجيم السلطة المملوكية.

استمرت سلطة الملك المنصور إلى حين وفاته سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. وتولى الحكم بعده ابنه الاشرف خليل الى أن قتله بعض أمراء المماليك سنة ٦٩٣ه/١٢٩٠ وقد شهد عصره استقراراً نسبياً وقويت نفوذ المماليك في الشام ولا سيما بعد طرد الصليبين من آخر معاقلهم مدينة (عكا) سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٠م[6]، وبرهن أحد الباحثين على أن الملك الأشرف استكثر من شراء مماليك الجراكسة[7].

تولى حكم المماليك بعد الأشرف أخوه الملك الناصر قلاون الذي ظل ألعوبةً بأيدي الأمراء لصغر سنه، وبعد سنة تقريباً من الحكم أقصي من قبل أحد الأمراء يدعى كتبغا الذي صار سلطاناً ونعت الملك العادل وأدار دفة الأمور إلى سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، حيث خلع من قبل بعض الأمراء وحل محله حسام الدين لاجين وتلقب بالملك المنصور وقتل بعد

---

[1] ينظر، الكتبي، مصدر سابق، ج٢١، ص ص ٢٢٢،١٣٣-٢٢٥، الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار، (بيروت:- د.ت)، ج١، ص٣٢.

[2] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٥٣ " العصامي المكي، سمط نجوم العوالي، ج٤، ص ص١٩-٢٠.

[3] للتفصيل حول ذلك ينظر، دريد عبدالقادر نوري، سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية في بلاد الشام، ٦٧٩-٦٨٩هـ /١٢٧٩-١٢٩٠م، بحث مستل من مجلة آداب الرافدين – كلية الآداب – جامعة الموصل، العدد التاسع أيلول، ١٩٧٨، ص ص٥١-٦٦.

[4] ابن كثير، مصدر سابق، ج١٣، ص٢٢١، سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية (القاهرة:- ١٩٧١)، ج٢، ص ص ١١٦٦-١١٦٧.

[5] ينظر، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص ص٨٦-٩٠.

[6] ينظر، الكتبي، عيون التواريخ السنوات (٦٨٨-٦٩٩هـ)، ص ص ٦٨-٧٠، ١٠٦-١٠٧، ١٣٠-١٣١.

[7] حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، (القاهرة:١٩٦٧)، ص١٣.

سنتين من الحكم من قبل بعض أمراء المماليك الذين سلطنوا مرة أخرى الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م وتلك سلطنته الثانية[١].

وتعدّ مدينة حماة آخر معقل لبقايا الأيوبيين في الشام، حيث ظلت تحكم من قبل الملك المظفر تقي الدين محمود بالتفاهم مع المماليك الذين عزلوه في هذه السنة وعينوا مكانه أحد أمرائهم وبهذا أخرجت حماه عن البيت الأيوبي إلى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، لكنها أعيدت إليهم مرة أخرى واصبح الملك المؤيد حاكماً عليها[٢]. لم يعامل ملوك بني أيوب على حماة معاملة نواب سلطنة أو ولاة من قبل المماليك بل أوجدوا في علاقاتهم معهم صيغة فريدة تضمن لملوك حماة قسطاً من الاستقلالية وللمماليك الولاء الصادق.

في أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ظهر خطر المغول مرةً أخرى في بلاد الشام وأدى إلى إرباك الوضع فيها، قام بعض العلماء بدور مشهود لتهيئة الناس للجهاد[٣] وبعد سنتين تمكن الجيش المملوكي بقيادة الملك الناصر من التغلب على قوات المغول عند قرية شقحب بأعمال دمشق[٤] ومن الظاهر أن بعض الأمراء لم يرضوا بحكم الناصر وعلى رأسهم الأمير بيبرس الجاشنكير ووقعت بينهما الوحشة التي أذكاها السعاة في سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م ما أدى إلى لجوء الملك الناصر إلى الكرك سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م وأظهر الانقطاع للعبادة، حينئذ اجتمع الأمراء وولوا أمرهم بيبرس وقرروه سلطاناً ولقبوه المظفر الذي حاول الحفاظ على الوضع القائم وبقى هكذا إلى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م [٥].

بعد أن مال جماعة من أمراء المماليك إلى الناصر محمد بن قلاوون في الكرك ضعفت جبهة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير وحاول أن ينقذ موقفه وعمد إلى تحديد البيعة واخذ المواثيق من الإمداد ولكن دون جدوى[٦]. وتوجه الناصر نحو مصر لاستعادة سلطته

---

[١] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ص٥-٨،٦، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٥٤.

[٢] أبو الفدا، المختصر، ج٤، ص ص٤١-٤٢، ٦٠-٦١.

[٣] ينظر: ابن عبدالهادي، العقود الدرية من مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية، تحقيق:- محمد حامد الفقي (لبنان: د.ت)، ص ص١٣٦-١٥٧.

[٤] المقريزي، السلوك، ج٢، ص ص٣٥٦،٣٣٧-٣٥٧.

[٥] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ص٩٠٦-٩٠٩.

[٦] مؤلف مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زترشتين، (ليدن:١٩١٩)، ص ص١٣٩-١٤٠.

سلطته وبعد أن شعر الجاشنكير بحراجة موقفه خلع نفسه ووافق ذلك دخول الملك الناصر مصر وإقراره سلطاناً ولم يلبث أن اعتقلا الجاشنكير وقتل بأمر من السلطان[1].

امتدت حقبة السلطنة الثالثة للملك الناصر محمد بن قلاوون إلى حين وفاته سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م انعم فيها الديار المصرية وبلاد الشام بالهدوء النسبي وذلك لقلة الأخطار الخارجية نتيجة لسياسات الملك الناصر والمساهمة في بناء العلاقات مع بعض سلاطين المغول، لذا انصبت اهتماماته على إدارة البلاد والنظر في شؤون الرعية ورعاية العمران، علاوة على قيامه ببعض الإجراءات الإدارية والسياسية التي تهدف إلى تعزيز موقعه وتركيز السلطات في يده بحيث هيأ قاعدة متينة لأولاده الذين خلفوه تباعاً في الحكم[2].

وبعد وفاة الملك الناصر نصب ولده سيف الدين أبو بكر سلطاناً ونعت بالملك المنصور، وذكر المؤرخون أنه اقبل على لذاته وأهمل شؤون الحكم لذا خلعه بعض أمراء المماليك لسبعة وخمسين يوماً من مبايعته وولو أخاه كجك ولقبوه الأشرف، وفي عهده انتهت سلطة بني أيوب على مدينة حماه، إذ عين المماليك نائباً عليها وانتزعوها من الأفضل بن المؤيد[3]وأصبحت المدينة من جملة نيابات الدولة المملوكية.

في سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م خلع الملك الأشرف من الحكم وتوالت على حكم المماليك خلال ست سنوات أربعة سلاطين هم احمد وإسماعيل وشعبان وحاجي وكلهم من أبناء الملك الناصر قلاوون، شهدت فترة حكمهم ازدياد نفوذ بعض الأمراء وتدخلهم في شؤون الدولة الذي نتج عنه عدم الاستقرار السياسي[4].

وفي سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م تولى الناصر بدر الدين حسن السلطنة المملوكية في مصر ولم يتجاوز الحادية عشر من العمر لذا تدخل الأمراء كما كانوا في السابق في شؤون الدولة، وخلعوا السلطان في سنة ٧٥٢هـ/١٢٥١م وولو مكانه أخاه الصالح[5] الذي كان ضعيفاً كسلفه وكان يشرف على أموره أحد الأمراء أتابكاً وهو الأمير طاز الذي اضمر له الباقون من

---

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ص٣٩-٤٢.

[2] الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج٤، ص ص١٨٤٨-١٨٦٤ " وللتفصيل ينظر الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩.

[3] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ص٩٤٩-٩٥١.

[4] ينظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ص١٤٨-١٦١، احمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (القاهرة: ١٩٧٢)، ج٥، ص ص١٨٦-١٨٧.

[5] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المصدر السابق، ج٥، ص ص٩٥٨-٩٦٥، علي إبراهيم حسن، حسن، مصر في العصور الوسطى، (القاهرة:١٩٦٤)، ص٢٢٥.

الأمراء السوء حسداً وكانت النتيجة القضاء على الأمير طاز وخلع الملك الصالح وإعادة الناصر حسن إلى الحكم سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م [١] وظهرت في عهده مجدداً خطر المغول حيث هاجموا سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م مدينة صفد وتمكن الجيش الإسلامي من ردهم على أعقابهم[٢].

ويعدّ المؤرخ ابن كثير خير من صور لنا طبيعة حكمه وتصرفاته التي أدت إلى مقتله سنة ٧٦٢هـ/١٣٦١م، إذ يذكر أنه ((لما كثر طمعه وتزايد شرهه، وساءت سيرته إلى رعيته، وضيق عليهم في معايشهم وإكسابهم، وبنى البنايات الجبارة التي لا يحتاج إلى كثير منها، واستحوذ على كثير من أملاك بيت المال وأمواله، واشترى منه قرايا كثيرة ومدناً أيضاً ورساتيق وشق ذلك على الناس جداً، ولم يتجاسر أحد من القضاة ولا الولاة ولا العلماء ولا الصلحاء على الإنكار عليه، ولا الهجوم عليه ولا النصيحة له بما هو المصلحة له وللمسلمين، انتقم الله منه فسلط عليه جنده وقلب قلوب رعيته من الخاصة والعامة عليه))[٣].

يعدّ الملك الناصر حسن آخر أبناء الملك محمد بن قلاوون ممن حكموا الدولة الملوكية والذين تولوا سلطنة المماليك البحرية بعد ذلك هم أحفاده وأبناء أحفاده، ومنهم السلطان المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٢-٧٦٤هـ/١٣٦١-١٣٦٣م) الذي كان ضعيف الشخصية، قليل الاهتمام بأمور الدولة لذا نفرت قلوب الأمراء منه واتفقوا على خلعه وولوا مكانه شعبان عبدالناصر[٤].

امتدت سلطنة الملك الأشرف شعبان المذكور إلى سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م ونظراً لصغر سنه وعدم تجاوزه عشر سنين في مبدأ حكمه، تولى وصايته أحد الأمراء وكان يدعى يلبغا الخاصكي الذي كان أتابكاً للملك المنصور من قبل، ومن أهم أحداث عصره هجوم الصليبيين على مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٦م الذين اقتحموها وظلوا فيها أربعة

---

[١] ابن خلدون، م. ن، ج٥، ص ص٩٦٦-٩٦٨، علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص١٢٨.

[٢] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص١٨٤.

[٣] م. ن، ج١٤، ص ٢٠٠.

[٤] ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ص٩٧٢-٩٧٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ص٣-٨.

أيام يقتلون وينهبون[1]. ولكن الحملة باءت بالفشل وانسحب الصليبيون[2]. وفي السنة نفسها قتل الأمير يلبغا بيد مماليكه وبهذا انتهت هيمنته على السلطنة وقوي جانب السلطان[3].

وفي أواخر عهد الملك الأشرف انتهز بعض الأمراء فرصة خروج السلطان للحج وثاروا في الديار المصرية، وسلطنوا الأمير علاء الدين علي بن السلطان وأشاعوا خبر موت الملك الأشرف فتم لهم ذلك من غير حضور الخليفة والقضاة، وبعد ذلك قبضوا على الملك الاشرف وقتلوه في سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م، ومن أهم مستجدات عهد السلطان الجديد الذي نعت بالملك المنصور بروز طائفة من صغار الأمراء منهم برقوق العثماني اليلبغاوي وبركة الجوباني اليلبغاوي[4]. اللذان كان لهما اليد الطولى في الأحداث السياسية على عهد السلطان المذكور وخلفه. وذلك لتمكنهما في الدولة نتيجة ضعف شخصية السلطان وقلة كفاءته وصغر سنه، إذ لم يتجاوز اثنتا عشرة سنة عندما توفي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م، وكان خلفه الصالح حاجي بن شعبان آخر ملوك المماليك البحرية وهو الرابع والعشرون من سلاطين المماليك تسلطن بعد وفاة أخيه الملك المنصور. وورد في النجوم الزاهرة أنه لما مات الملك المنصور تكلم الناس بسلطنة الاتابك برقوق العثماني وهذا لم يعجب أكابر الأمراء فخاف برقوق على نفسه وشعر بخطورة موقفه، لذا حضر حاجي بن شعبان وبويع سلطاناً بحضور الخليفة والأمراء والقضاة واصبح الأمير برقوق أتابكه[5].

لقد شهدت سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م ازدياداً لافتاً للنظر في نفوذ الاتابك برقوق، وبما أنه كان ينوي الاستحواذ على السلطة لنفسه لذا شكل خطراً بات استفحاله أمراً وشيكاً، إذ تغلب على منافسه وصفا له الجو حتى تمكن من إقناع الخليفة والأمراء وأصحاب النفوذ بان

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ص٢٩-٣٠ " سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ص١٢٢٣-١٢٢٧.

(٢) ينظر عزمي عبد أبو عليان، مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، (عمان، ١٩٩٥)، ص ص١٠٩-١١٨.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص ص٢٣١-٢٣٢.

(٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص ص٩٩٠٢-١٠٠٠.

(٥) النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٠٦-٢٠٧، انطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية (بيروت:١٩٨٢)، ص٢٩٥.